نقولا ماكيافِلِّى

الفصل السادس فى الجزء الأول من المجلدات السبعة تأليف المؤرخ البريطانى جون ادنجتون سيموندز بعنوان « الرينسانس فى إيطاليا » ، الطبعة الأولى صدرت سنة ١٨٧٥ وتلتها ثلاث طبعات ، وإحدى عشرة إعادة للطبعة الثالثة بالعدد الذى تحت يدى : ١٩٢٣ ، هو أهم ما قرأت فى كل مراجعى إيضاحًا لماكياڤِلّى فى كتابه الأشهر وعنوانه : « الأمير » ، عالج فيه السياسى النابه موضوع الحكم ، لم أشهد وأطالع شيئًا أدق وأعمق منه .

ماكياڤِلّى ، وهو يستعرض الصفات التى يقوم عليها نجاح حاكم ، حل أشكال كتابه بالتركيز على الأمير تشيزارى بورچيا . فإن أسوأ ما يقال عن إيطاليا القرن السادس عشر يجىء فى معالجة ماكياڤِلّى ببراعة وصراحة عجيبة لحكم هذا العاهل المجرم ، لا تنديدًا بأخلاقه وسلوكه ، وإنما تسجيلا لطريقته فى الحكم اللا أخلاق ، هى المثل الأصدق لنجاح « الأمير » . ويرى الأستاذ سيموندز ، أن هذا المشرع العميق لدواع إنسانية استند فى دراسته إلى

الاقتناع بأن الناس أشرار. وماكيافيلّى يقول وهو يناقش الموضوع أمام الأمير: هل الآمن أن يكون الحاكم محبوبًا، أو مخوفًا؟: الجواب: «الآمن أن يكون مخوفًا لا محبوبًا، كلما توقف أمام الاختيار». إذ يرى أن الناس فى الأغلب «لا عرفان عندهم بجميل، ولا ثبات رأى، وهم المخادعون، يتحاشون الأخطار ويتعطشون للكسب. فإن كنت تخدعهم فهم معك، يعطونك كل شىء حتى أطفالهم، عندما لا تكون فى حاجة إلى شىء من ذلك، إنما حين تلتمس المعونة فإنهم يخلون بك، فالأفضل إذن ألّا تثق أو تصدق حبهم الخادع».

وحذار أن يسىء الأمير إلى رعيته فى شرفهم، أو ممتلكاتهم، وهذه الأخيرة أهم من الأولى عندهم: «لأن الناس ينسون مقتل آبائهم، بأسرع مما ينسون خسارة أموالهم، ووضح ماكيافيلّى هذا فى شكل بديهية: إن كانت أغلبية الناس أهل سوء، فإن من واجب الأمير – دفاعًا عن ذاته – أن يتعلم كيف يكون رجل سوء، ويجب أن يعمل بهذا المبدأ كلما وضحت ضرورته، مع الاجتهاد فى كل الظروف أن يظهر طيبته».

وفى الفصل الخاص «بكيف يحافظ الحُكّام على كلمتهم أو يوفون بوعودهم». بدأ ماكيافيلّى التوكيد على أن «صراع الحياة فى حدود القانون عمل إنسانى، وأن الاتكاء على القوة عمل وحشى. إنما يلجأ إلى هذا الأخير عندما لا يصلح الأول، أى نعم، ويجب على الحاكم أن يجمع فى شخصيته بين الإنسان والحيوان. وكان رائد

obeikandi.com

« أخيلّس » بطل الإلياذة ، يربى تلميذه على أن يكون حذرًا كالثعلب ، شجاعًا كالأسد . فبهذا يتجنب الشباك ، ويحتمى من الذئاب » .

والحاكم الواعى الحريص يجب « أن يتجنب المحافظة على وعده إذا كان فى الوفاء به ضر » أو عندما تفوت الفرصة التى وعد فيها . ولن يصعب عليه أبدًا أن يجد فى الوقت المناسب عذرًا بعدم الوفاء بوعده . وهو إذا تدرب على التظاهر فإن من اليسير عليه أن يخدع الناس » . ويتمثل ماكياڤلّى هنا بالبابا إسكندر السادس « والد الأمير تشيزارى » « إن إسكندر السادس لم يعمل فى حياته إلا بالخديعة ، بل لم يتجه فكره إلى غيرها ، ومع أنه من أكثر الناس حلفانًا على أنه ربط نفسه بما وعد ، فقد كان من أندرهم تنفيذًا لوعده » فيؤكد ماكياڤلّى : « لا ضرورة أن يكون الحاكم رءوفًا صادقًا ، أمينًا ، متدينًا ، عادلاً ، بل أُقْدم على القول بأن لو كانت فيه كل هذه الصفات ، ويعمل بمقتضاها دائمًا ، فإنّ فى ذلك مضرة به . ولكن عليه أن يظهر بهذه النُّعوت ، وخاصة فى بداية إمارته ، إذ سوف يحقق استحالة الممارسة لهذه الفضائل ، لأن المحافظة على سلطانه تتطلب أن يعمل بضد الإنسانية ، وضد الرأفة واللين » .

ولا ينصحه ماكياڤلّى أن يكون شريرًا للشر . إنما هى الوسيلة التى تمهد له الدفاع عن مملكته ، لأنه سوف يَعْرِفُ متى يتخلى عن طريق الاستقامة . « واجبه ألّا ينطق بكلام إلّا وهو يتحدث عن هذه

obeikandi.com

الفضائل . وأن يبدو رحيمًا ، مخلصًا ، إنسانيًا ، منصفًا ، ومتمسكًا بدينه . وخاصة هذه الفضيلة الأخيرة » .

يكفيني هذا النموذج الذي يفسر نظر الناس إلى ماكيافيلِّي ، وحتى دون أن يقرءوا كتابه « الأمير » . فقد ذهبت كلمة المكيافيلّية مثلاً ، بمعنى ما جاء فيما اخترته متفقًا مع سمعة ماكيافيلِّي السيئة : وهناك من يدافعون عنه بقولهم إنه رأى ذلك الشيطان تشيزارى بورجيا قد نجح في إمارته ، وفي سياسته اللا أخلاقية . فهو مجرد تقديم مثل حي لحاكم كان نجاحه كاملا في حكمه ، وسلوكه إجرامًا في إجرام .

ولكي أثبت أن ماكيافيلِّي ، فيما عدا ما كتبه عن « الأمير » يعتبر من أقدر وأحكم الناس في شئون السياسة ، أقترح أن أقدم نموذجًا أو أكثر من كتبه الأخرى لكي يجيء الحكم النهائي على أكبر عالم سياسي في عصر « الرينسانس » ، وأوفر على نفسي سرد قصة حياته ، مكتفيًا بمعالم هذه الحياة في سطور قليلة .

ولد عام ١٤٥٩ من أسرة ذات أصل نبيل ، وكانت فلورنسا جمهورية ويحكمها بالتوالي أعضاء أسرة الميديتشي .

وأعجب ما توصف به حياة ماكيافيلِّي أننا لا نعرف شيئًا عن نصف حياته الأولى ، فقد عاش ثمانية وخمسين عامًا (١٤٦٩ – ١٥٢٧) ، وتصور أن حياته حتى بلغ ٢٩ عامًا مجهولة أو تكاد . والأغلب أنه عاش من طفولته إلى رجولته في أسرته ، وهي أسرة

نبيلة وإن لم تكن واسعة الثراء ، ويبدو أن دراسة ماكيافيلّى كانت جادة : حفظ اللغة اليونانية ، وتَفَوّق فى اللاتينية ، مما أُهّلَه للعمل بدار الحكم « السنيوريا » ، أهّلَتْه وظائفه الأولى للتمرس بشئون الحكم ، وتعمق وعيه السياسى بالإطلاع على المؤرخين الكبار من اليونانيين والرومان ليستخرج من كتبهم شيئًا غير المبادئ ، وغير الفلسفة ، فلم يك رجل نظريات .

حياته فى الوظائف التى تولاها ، ومن أوائلها فيما ذكرناه أمانة « السنيوريا » (سكرتير مجلس الحكم) . وأوفد فى سفارات كثيرة إلى الإمارات والجمهوريات والممالك ، وقد أدرك شيئًا متفقًا مع طبيعته ، أيًّا كانت طريقة الحكم ملكية أو أميرية أو جمهورية ، فالمهم الوسائل التى تجرى فيها الأحكام دون توقف أو تعثر. وأكدت التجربة لديه أهمية الظروف والتحركات والمواقف التى تجرى فيها ، فهذه هى التى تحدد مسار الأحكام ، فلاحًا أو خيبة ، ويدخل تحت هذا اختلاف الأجواء والأزمنة والشعوب . .

هذا هو التفسير الذى انتهى إليه ، اختزله من مجموعة تجارب وممارسات طويلة فى دويلات شبه الجزيرة الإيطالية . فتحقيق النجاح لا يجىء بمجرد التمسك بفكرة فى الحكم ، أو فى تنظيمه ، بل أن يستطيع الحاكم أو الأمير أن يوفق بين كل الظروف والطباع ، والأمكنة ، حتى يجىء حكمه متفقًا مع « وقائع الحال » ، بشرط ألّا ينسى ألاعيب القدر ، أو الحظ ، فإن دور هذه الظاهرة فى المجتمعات البشرية وفى الأفراد ، دور هام . ويتعين على الأمير أن

يتنبه ويمعن الفكر حتى يتمكن من معرفة الخيط الأبيض من الخيط الأسود. واستخدامى لكلمة «ألاعيب» هنا استخدام صحيح، لأنى أشبه السياسة بالرياضة البدنية: فلاعبو الكرة مثلا، مهما كانت مهاراتهم وحسن تصريفاتهم واستعدادهم، فإن فى اللعبة ظروفًا تختلف وتتغير. فالأرض من طبيعة مخالفة لطبيعة أرض الفريق الزائر، أو اليوم مطير، وتشارك الرياح فيه اللعب بالكرة. وغير هذا من مصادفات القدر. وعلى رئيس الفريق - والمفروض فيه ألّا يكون أمْهَرَ لاعِبٍ فحسب، بل يجب أن يكون لديه ملكة القيادة، مع ذكاء متحرك بسرعة تمكنه من تغيير خطته ليتوافق فريقه مع تغير الظروف.

ولهذا جاءت مؤلفات ماكيافيلّى، وخاصة كتابه «الأمير» قادرة على الوقوف أمام الزمان والحدثان وقفة خبرة وعلم إيجابى، وكأنها مجموعة وصفات لكل «وعكة» أو مرض سياسى خطير.

بعد ما عرضناه من الظروف التى وضع فيها ماكيافيلّى كتابه «الأمير» يحق لنا أن نعتبر كتابه كشفًا صادقًا عن فلسفته السياسية، فقد كان فيها مُحَلِّلاً إيجابيًا كفئًا عرف كيف يحيط كلامه بحدود دقيقة حسب الموضوع الذى اختاره. وبالطبع لم يؤلف كتابه هادفًا الأخلاقيات بل أراد أن يضع بكل دقة علمية السلوك الذى يعتبره ضروريًّا لنجاح حاكم فى سلطة مطلقة، وجدير بنا أن نتقبل كلامًا من أعمق ما كتب وأصفاه لعرض المبادئ التى ترشد السياسيين الإيطاليين فى القرن السادس عشر. وإذا كانت الفعال التى جرت بها

هذه السياسة توصف بالماكيافيلّية فلنعلم إذن أن الماكيافيلّية موجودة قبل ماكيافيلّى ، وأمامنا أمثلة كثيرة فى إمارة الفيكونتى بميلانو . وحكم لويس الحادى عشر فى فرنسا ، وفرديناند الكاثوليكى فى أسبانيا ، ومجلس العشرة فى البندقية ، وفى «مشيخة» البابوية (الكُورِيَا) وهى مجموعة المؤسسات التى تؤلف الحكومة البابوية .

وطبيعى – بعد أن قرأ الناس كتاب « الأمير» على مدى العصور – أن « وَصْفَةَ » الماكيافيلّية تنطبق على هتلر وموسولينى وستالين ، وغيرهم من الطغاة فى آسيا وأفريقيا وأمريكا الوسطى والجنوبية (اللاتينية) لأن ما يجمع هؤلاء الحكام هو أنهم عملوا لمصلحتهم أولا ، وأكره المغالاة التى تفرض علىّ إضافة « وأحزابهم » ، كما يجمعهم أنهم يفصلون بين عملهم السياسى وبين أخلاقياته ، فكلهم لا خلاق لهم ، مادام هدفهم هو نجاح حكمهم بالعنف والغش والظلم والكذب والفساد ، ثم ينتقل منهم إلى الرعية بشراء الذمم والرشوة ، أو بالإغراء بعد التعذيب أو التهديد . والعجيب أنهم كلهم ، عندما لا يجدون فى قوانينهم المصنوعة على مقاسهم ، سبيلا لإجراء ما يتحجبون وراءه وجدوا فى مصطلح جذّاب وكاذب ، حجتهم فى العسف والإجرام ، وهو « شئون الدولة العليا » ويترجم صحيحًا وحرفيًّا بمصطلح « القوة هى الحق » (مايت إذرايت) .

البطل الذى أعجب به ماكيافيلّى هو « الأمير» فى عنوان الكتاب ، واسمه تشيزارى بورجيا ابن البابا الإسكندر السادس .

obeikandi.com

أوفدت « السنيوريا » (حكومة فلورنسا) سكرتيرها (ماكياڤلّى) وسفيرها إلى « إيمولا » ليراقب أميرها تشيزارى ، للإفادة عن هذه المهمة . وسعد ماكياڤلى بهذه الفرصة التى كشفت له عن براعة هذه الشخصية وحدة ذكائها ، وهى أسوأ دبلوماسى عصرها فى ذمتها الخربة . شاهد ماكياڤلّى نجاح تشيزارى فى إدارة إقليم رومانية . فهو الحزم فى أشده ، مع قسوته الفظيعة . ولقد حضر تنفيذ الإعدام فى رؤساء مؤامرة قام بها أورسينى وعصبته .

وأدلى إليه ابن بورجيا بطموحه ، وكشف له عن دوافع سياسته المتخفية وإجراءاتها فى ظروف متعددة . وماكياڤلّى يتساءل فى نفسه : من ياترى يلعب بالآخر ، أنا أم هذا البورجيا ؟ ؛ إنما الذى عاد به من سياق الذكاء والحنكة السياسية ، كان صورة لأحسن نموذج وأكمله فى دراسة فنون الحكم . وانتهى إلى تلخيص تجربته العجيبة بقوله : إذا تأملنا فيما حقق البورجيا من منجزات فسوف نجد أنه أقام بناءً ضخمًا قويًّا لمستقبله السياسى « ومن لى به أن يعدنى بما أقدمه إلى أمير فى مطالع تقليده الإمارة » فكان هذا ما قدم به كتابه المشهور إلى أمير فلورنسا الشاب المديتشى .

تشيزارى لم يكن لديه ما يستفيد منه سوى أنه ابن بابا روما . فكان الأيسر له أن يجرب نفسه فى سلك الإكليروس . فعينه أبوه كاردينالا . ولكن بعد أن قُتِل أخوه الأكبر ، خلع الرداء الأحمر ، وأعلن استعداده لتقلد عمل سياسى . ومع أن أباه أصدر مراسيم بتعيين عشرة كرادلة فى يوم واحد ، فإنه طلب من المجلس المختص

(الكوريا) بأن يوافق على إقامة ابنه تشيزارى أميرًا على دوقية رومانية . ولكن ممثلى البندقية وميلانو « فى « الكوريا » رفضا الموافقة ، بالإضافة إلى حاجة البابا الماسة إلى سناد من أكثر الأسرات العريقة فى روما : أسرتى أورسينى وكولونا ، علمًا بأن الأسرتين تتحكمان كقُوَّادٍ لكافة الجنود المرتزقة فى إيطاليا ، وهذا بالإضافة إلى كونهما نبلاء روما ، ولا يطيقون الاستسلام للبابا الفلورنسى وهو أسبانى الأصل . ولم يجد طريقة يكسب بها موافقة النبيلين إلّا بدعوة ملك فرنسا إلى إيطاليا ، وهو مدرك أن هذا الملك بحاجة إلى سلطة البابا للموافقة على طلاق الملكة زوجته مقابل حمايته لابنه شيزارى ، وانتهى الأمر إلى تعيين ابن البابا دوقًا على رومانية بمعونة ملك فرنسا وأسرة أورسينى .

واصل تشيزارى ببراعته ومؤامراته ومن بينها الاحتيال على حيازة ثقة الكاردينال الفرنسى ، وهو المسيطر على ملك فرنسا الشاب ، وبهذا تغلب على كبار أسرتى أورسينى وكولونا ، ووضعهم فى ركن بالحيلة والخداع ، فحين دعاهم إلى قصر سيجاليا ، وعزلهم عن حراسهم وأجنادهم ، أمر بإعدامهم خنقًا ، وبهذا تم له الاستيلاء على حكم مقاطعات فى وسط إيطاليا ، ثم جمع إلى إمارته البَدَنِيّة السيطرة الروحية بحكم أن أباه عينه كاردينالا ، كما أسلف القول ، وتحقق له أمران : خوف كبار الإيطاليين منه ، وتعلّق الشعب به ، ولن يقف تشيزارى عند هذا النجاح ، إذ كان يأمل فى امتداد سلطاته على الإمارات الإيطالية الباقية ، لولا أن حال بينه وبين

النجاح ملك فرنسا ، ولكن تشيزارى بورجيا عرف طريقه إلى اجتياز العقبات . وساعد على نجاحه وجود الإمارات الوسطى التى يحكمها بين ميلانو فى الشمال ونابولى فى الجنوب .

وآخر المؤامرات التى فكر فيها كان يتعلق بالمستقبل ، إذا توفى أبوه . ولهذا حرص على اللعب بالإكليروس حتى لا ينتخب بابا جديدًا إلا والحيطة منه معدة ، وآخر ما ارتكب من جرائم ، القضاء على كل أولياء العهد فى الإمارات التى يحكمها ، وضمن بهذا اختفاء من يمكن أن يتحزبوا عليه بحكم ولايتهم للعهد .

وقصارى القول يجىء فيما كتبه ماكيافلّى تعليقًا على هذه الجهود والألاعيب « فالذى يشعر بالحاجة إلى حصانته وسط أعدائه ، والذى يتمكن من ضم أحلاف له بمختلف الوسائل بالمال ، والوظائف ، وبالقوة والغش ، لن يجد نموذجًا أقوى ازدهارًا من تشيزارى بورجيا » .

obeikandl.com

فقرات مختارة من كتابات ماكيافِلِّى

معاملة المحكومين إما حيوانية أو إنسانية :

يجب العلم بأن هنالك طريقتين للحكم : إحداهما بالقانون ، والثانية بالقوة المطلقة ، الأولى جديرة بالإنسان . والثانية اختص بها الحيوان . غير أن الطريقة الأولى وحدها فى الأغلب ، لا تكفى فيضطر الحاكم إلى استخدام الثانية – ولهذا يتعين أن يكون قديرًا على ممارسة الحيوانية ، والإنسانية . وهذه قاعدة رُبِّىَ عليها الحكّامُ القدماء . بلغة مستورة ، ونعنى أن يستخدم الأمير الطريقتين ، لأن كلًّا منهما لا تقوم وحدها بل تحتاج إلى الأخرى .

وعلى الحاكم أن يحسن اختيار الحيوان المناسب لكل طريقة ، الأسد والثعلب ، فالأسد ليس عليمًا بالشِّباك حتى يتجنبها ، والثعلب قادر بحيله على تجنب الذئاب ، فالحاكم عليه أن يكون ابن آوى ويتجنب الوقوع فى الشراك ، وأن يكون أسدًا تهابه الذئاب – أما أولئك الذين يطمحون فى أن يكونوا أُسودًا فقط فإنهم لا يفقهون شيئًا . ولو كان الناس جميعًا طيبين لما كنا بحاجة إلى هذا وذاك ،

obeikandi.com

ولكن أغلبيتهم أشرارٌ يفرضون على الحاكم أن يكون ابن آوى ، إنما يتعين عليه أن يتسلم ويتدرب على إخفاء طبيعته هذه ، وأن يعتاد على الخداع والمراوغة مُتبسِّطًا والناس مطيعون للضرورات ، فلن يتعب الحاكم فى العثور على من يؤمنون بالمخادعة .

فن الحكم فى المظهرية :

عندى مثال حى أتمسك بالحديث عنه ، وهو أن البابا إسكندر السادس والد الأمير موضوع كتابى ، لم يصنع شيئًا سوى خداع الناس ومخاتلتهم . لم يفكر بغير هذا – مادام لم يجد دائمًا من يقعون فى الفخ . ولم يوجد رجل مثله فى القدرة على نوال الثقة بأقواله ، وسنادها بأغلظ الإيمان . وهو أقل الناس وفاءً بوعده وارتباطًا بيمينه وكان دائم النجاح بهذا السلوك ، وإتقانه ، ولا ضرورة ثمة للأمير أن يحظى بالصفات المفيدة ، فالأهم أن يظهر بأنه يملكها . وعلى الرغم مِنّى أجرأ على القول بأنه حتى ولو كان حقًّا يملكها ، ويعمل بها ، فإنها تعود عليه بالخسران . الظهور والتظاهر بها أهم من حقيقة وجودها . ويجب الفهم بأن الأمير – وخاصة فى بداية حكمه – مطلوب منه أن يمارس كل الشرائط التى تضفى عليه صِفَةَ (الطيبة) ، لأنه مضطر فى حكمه – إذا أراد المحافظه عليه – أن ينفذ ما يخالف وعوده ، وأن يعمل على الضد من الرأفة والإنسانية . المهم أن يتجه مع الريح ، مهما تغير اتجاهه ، مع الحرص على ألا يبتعد كثيرًا عن كرم الأخلاق بقدر الإمكان ، وبشرط أن يكون دائمًا على

obeikandl.com

استعداد لولوج باب الشر عند الضرورة ، والناس عموما يقيمون حكمهم على الأمير بالنظر ، لا باللمس ، كل العالم يرى الظاهر بوضوح ، القليل منهم تصل حساسيتهم إلى إدراكه لما يخفيه هذا الظاهر.

الأخطاء المطلوب تجنبها :

الحذر من الوقوع فيما يعرضه للحقد والاحتقار. وأكبر ما يثير البغضاء والكره هو اغتصاب الأملاك ، والاعتداء على نساء شعبه . فالغالب أن يعيش الناس قانعين هانئين إذا لم يعتدِ أحد على ملذاتهم أو على شرفهم. ولهذا يتبقى للأمير أن يعصف بالطامعين والطموحين ، وهم نوع من الناس يسهل التخلص منهم (أى تصفيتهم) .

ومن واجب الأمير أن يتجنب حكم الناس عليه بالطيش والخفة والتخنث ونقص الشجاعة ، وضعف الإرادة .

وأن يجتهد فى أعماله وإنجازاته بالظهور عظيمًا شهمًا ، جادًا ، قويًا ، وأن يظهر لهم ، فيما يختص بالمتآمرين أن لا نقض للأحكام التى تنزل بهم . وأن يسعى فيما يتحدثون به عنه ، أن يكونوا واثقين من أن لا يعلم إنسان بإمكان خداعه أو تجريحه .

العشرية الأولى للمؤرخ تيتوس – ليڤيوس :

لم أخرج فى مختاراتى من كتابات ماكيافيلّى عن الحيز اللا أخلاقى الذى اشتهر به الكاتب السياسى الأكبر فى عصر الرينسانس ، وكتابه عن « الأمير » هو مصدر هذه الشهرة . وأظنه أمرًا واضحًا أن صفة الماكياڤيلّية فى السياسة هى من نتائج هذا الكتاب . وقد علقنا عليه بما فيه الكفاية .

وحان الوقت لأصحح كل هذا الحديث عن أهم دراساته السياسية والاجتماعية ؛ وهو الكاتب الذى وضعه النقاد فى طليعة الفلاسفة والسياسيين . لا فى عصره وزمانه ، بل فى كل عصر وزمان . وفات الكثيرين ممن كتبوا عن « الرينسانس » وعن ماكياڤيلى أن يكشفوا عن أهمية ما يعرف ضمن مؤلفاته باسم « أحاديث من العشرية الأولى للمؤرخ « تيتوس – ليڤيوس » (وهو : تِيتْ – ليڤْ فى لغة الفرنسيس وتت – لِڤِى عند الإنجليز) . إنها أحاديث أوسعت آفاق ماكياڤيلى إلى درجة تفوق الوصف . وصدق من حكم على أن هذا أعظم مؤلَّف له . وتنشأ أهميته من أنه كشف لنا عن عمق تفكيره . وفى ذلك يقول أهم المعلقين الفرنسيين « چانجنيه » : « هذه أحاديث أسمى من كل كلام عن طغاة صغار فى إيطاليا الرينسانس ، أخرجهم من حسابه ، ليضع نفسه فى الوضع الصحيح كرجل ذى مبادئ سامية . وهو يحدثنا فى لغة حرص المعنون بمادة الكتابة أن يشغلوا تحليلها لغة وأسلوبًا . كما حرص المؤرخون أن يستخرجوا منها

خدماته كمؤرخ ، فى حين استمتع القراء بما أفاضه عليهم من تفاصيل الأحداث . وتخلّف القراء عن إدراك ما فيها من دروس سياسية ، تسمو على سرد وقائع جاءت فى نص تيتوس ليڤيوس ، فالمُهِمّ أنه اتخذ من نصوص العشرية الأولى (الديكاد) للمؤرخ الرومانى الكبير خلفية للتعليق عليها فى اثنين وأربعين ومائة فصل . واشتملت على مواضيع سياسية . وإدارية واجتماعية ، وعن إيضاحات فى الفن العسكرى . يؤكد كلامه بضرب أمثلة ، لا من عشريات تيتوس - ليڤيوس وحدها . بل هو يحدثنا عن وقائع وملابسات استخرجها من التاريخ الرومانى كله ، ومن التاريخ العام ، مستعينًا بشهادة زينوفون ، وتاسيتوس - إلخ ، وبتاريخ فلورنسا ، وسيرة البابوات ، وما جاء فى حوليات الإمبراطورية ، وفرنسا وأسبانيا .

ولقد تصفحت غير قليل مما كتبه ماكيافيلى فى ١٤٢ عشرية ، باحثًا عن واحدة مبسطة أقدمها للقارئ . فالأحاديث (ديسكورسو) كان يدلى بها بين خوّاصّ وأصدقاء فى حدائق أوريتشلارى ، وكأنهم يتخيلون حدائق « أكاديم » فى أثينا ، بهذا الفارق : مداولات المفكرين فى شباب الأمم ، كانوا يعنون بالآلهة وبالروح ، وبالطبيعة ، وبأسرار الأبد . أما فى عصر النهضة والنضوج فقد كانوا يتجنبون الدراسات التجريدية فى جو حالم ، ويتابعون ما يرسم لهم طريق السؤدد ، فأقبلوا على وعى التاريخ والسياسة ، فهو السبيل الذى يضم الماضى إلى الحاضر ، فتحًا للمستقبل .

الكتاب الثالث– الفصل الثالث والعشرون
طرد كاميلّوس من روما

عندما تحدث المؤرخ تيتوس – ليفيوس عن رجل الدولة والقائد كاميلّوس (ماركوس فوريوس) ، أشار إلى أن جنوده أعجبوا ببسالته وحقدوا عليه فى الوقت ذاته .

والصفات التى اجتذبت إعجابهم كانت عنايته بجنوده ، وحرصه عليهم ، وسمو روحه . وجودة الإعداد والتنفيذ فى قيادة الجيش . أما الحقد فكان مصدره المغالاة فى العقوبة ، ومسك اليد فى المكافأة .

والمؤرخ تيتوس – ليفيوس يرجع هذا الحقد إلى الدوافع الآتية :

أولا : فضل أن يضم ما جمعه من بيع ممتلكات الأعداء إلى احتياجات الدولة ، على أن يتقاسم وجنوده بقية غنائم النصر .

ثانيًا : فى الاحتفال بالنصر أسرج أربعة جياد بيضاء فى عربته ، مما آثار بين الجنود القول بأن كبرياءه الأرستوقراطى دفعه إلى التشبه بالشمس الطالعة .

obeikandl.com

ثالثًا : سحب غنائم الانتصار من الجنود ليقدمها لمعبد أبولّون . وكانت لا تزيد على عُشْر غنائم الظافر .

ويمكن الحكم على هذا السلوك بأنه أثار بغضاء الشعب ، إذ حرم الجنود من حقهم . وهذا فعل فاضح . لأن ما حبسه عنهم من خير تظل ذكراه حية في نفوس المحرومين ، ولأن احتياجهم مهما يكن ضئيلا يكفي للبقاء في ذاكرتهم ويثار كل يوم .

إن الزهو والكبرياء نبع مرٌّ لحقد الشعب . وخاصة بين رجال أحرار . وحتى إذا لم يسبب هذا السلوك ضُرًّا لهم ، فإنه يظل مثار كره لصاحبه . وواجب القائد والزعيم تجنب هذه العثرة . فالوقوع في شرك الحقد العام ، دون أن يجني القائد منه فائدة هو عين الخسارة والطيش .

obeikandl.com

الكتاب الثالث – الفصل الرابع والعشرون

امتداد القيادات سلمت روما للعبودية :

إذا تأملنا فيما جرى على الجمهورية الرومانية ، فسوف نلاحظ أن سبب حلها مرجعه عاملان : الأول : الخلاف الذى نَشِبَ حول قانون الإصلاح الزراعى . والثانى هو مد الخدمة للقيادات . فلو أن المسئولين تنبهوا لكان من المستطاع إيجاد العلاج الناجع ، مما يطيل عمر الحرية ، ويقيم جوًّا من الهدوء .

ومع أن مدّ الخدمة للقيادات لم ينشأ عنه فى روما أى متاعب ظاهرة فإنّ النظرة الفاحصة تكشف عن الضرر الذى يلحق بالجمهورية من جراء النفوذ الذى اكتسبوه من امتداد سلطاتهم .

فلو كان امتداد السلطة جرى فى حدود معقولة وبين رجال فضلاء ، كما فى حالة القائد لوسيوس كوينتيوس ، لما تعرضت الجمهورية لما حل بها . فالفضيلة التى اتسم بها لوسيوس قدمت أمثولة ملحوظة . فعندما وافق الشعب على اتفاقية بينه وبين أعضاء

obeikandl.com

« السناتو » على مد خدمتهم عامًا ، كان الشعب يتوقع أنهم قادرون على مقاومة مطامع النبلاء ، وبما أن مجلس الشيوخ شاء أن يجارى الشعب فى مد أجل قنصلية لوسيوس كوينتيوس . فإن القنصل رفض هذا الإجراء ، قائلابأن من الواجب القضاء على الأمثولات السيئة ، بدل المغالاة فى ارتكاب الخطأ وتكراره . وأصرّ القنصل على انتخاب أعضاء جدد .

فإذا كان لمواطنى روما رجاحة عقل لوسيوس ، وقوة شخصيته لما وصل الأمر إلى ارتكاب هذا الشطط ، بمد خدمات المشرفين بما يستتبع حتمًا امتداد مدة القيادة العسكرية ، وهذا هو الإجراء الذى انتهى بالقضاء على الجمهورية .

وأول إجراء لهذا المد تم فى قيادة بوبليوس فيلوس . وكان قائمًا بحصار مدينة هامة ، وقنصليته قاربت النهاية . ومجلس السناتو يَخْشَى من إفلات انتصاره ، وخاصة أنه لم يبعث إلى المجلس بطلب ، بإيفاد عضو من السناتو ليأخذ مكانه . وإذا بالمجلس يرق بوبليوس إلى قنصل أول ، وكان أول شيخ يبلغ هذا المقام . فهذا الإجراء ، وإن كان فى الحق أملاه على الشيوخ باعتباره فى صالح الجمهورية ، فإنه بمضى الزمن انتهى إلى استعباد روما . فقد استمر الحال على هذا المنوال . وما دامت الجيوش فى مواقع حروبها تبعد عن روما ، فقد امتد الزمن فى هذا الخطأ ونشأ عنه نوعان من المتاعب : الأول – قِلَّة عدد الموظفين الذين أُعْطُوا الفرصة ليمارسوا القيادة . والثانى – امتداد خدمة القائد أمدًا طويلا ، وعلى أبعاد شاسعة من العاصمة ، قدم

للقائد الفرصة بتوثيق العلاقة بينه وبين جنوده . فانتهوا إلى إهمال أمر مجلس الشيوخ ، ولم يعودوا إلى الاعتراف إلّا بقائدهم .

وكان هذا الأصل فى نجاح القائدين سيلّا ، وماريوس فى قيادة جيش لا يتردد فى اتباعهما ليقضيا على الجمهورية . وتبعًا لكل هذه الإجراءات تمكن يوليوس قيصر من استعباد وطنه .

obeikandl.com